

التعليم في بريطانيا

تعليم البالغين - فكرة الكليات الشعبية

المقصود بتعليم البالغين هو تعليم الشبان الذين يبلغون العشرين أو أكثر من العمر (مثلا) على أن يشغل ذلك جزءا من الوقت يتفق مع العمل وكسب المعاش . وتتلقاه خاصة طبقة العمال رجالا ونساء لأنه مرغوب فيه منهم . وذلك هو النوع من تعليم الشبان الذي سنغنى به في بحثنا ، ليس لأنه من الممكن وجود هذا التعليم في أية طبقة ولا لأنه يصلح لجميع أعضاء المجتمع ولكن لوضوح الحاجة الشديدة اليه والرغبة المؤكدة من جانب أعضاء أكبر طبقة تلك الفرصة الصغرى للحصول على تعليم تام في شبابها . ولذلك فإنه من الحق ومن اللائق أن تقدر حاجاتهم ورغباتهم وما اتخذ وما يجب اتخاذه من استعداد يوافق هذه الحاجات والرغبات . ولتعليم البالغين تاريخ قديم . وهو في الحقيقة أقدم بخلاف ما يظهر لنا حتى من التعليم الأولى ،

فمنذ ١٨٢٣ بدأ الدكتور بيريك حركة إنشاء معاهد ميكانيكية Mechanics Institutes ، عددها في سنة ١٨٥٠ : ٦٠٠ معهدا تضم اليها ما يزيد عن ٦٠٠,٠٠٠ عضو في المراكز المدنية بالجماعة . وبعد ذلك بقليل بدأت حركة أخرى قام بها كتان هوج Quintin Hogg الذي أسس في سنة ١٨٨١ مدرسة الفنون الصناعية بشارع ريچنت Regent Street Polytechnic والتي اتخذت نموذجا لعدد آخر من المعاهد التي أنشئت بعد ذلك في لندن والمدن الأخرى .

وهاتان الحركتان كما تدل عليه كلتا ميكانيكا وفنون صناعية كانتا متعلقان رأسا بالصناعة والعلوم التطبيقية كما كان طبيعيا في العصر الفيكتوري Victorian Age .

ولكن تعليم البالغين في مراحل متتابعة كان حركة واسعة الإنتشار والتعمق . ففي العشر سنوات الأولى من القرن الحالى تكونت فكرة أسمى من ذلك تمثلت في إنشاء جماعة التعليم للعمال Workers' Educational Association .

فبدلا عن البحث في تمرين العمال لرفع مستواهم من حيث النظام الصناعى أصبحت تتطلب الآن تمرين العمال والعاملات ليكونوا مواطنين أرقى حالا في مجتمع ديمقراطى ، لأنهم أصبحوا أكثر تعليما ، وأكثر المساهمة بتاريخ وسياسة واقتصاديات مجتمعاتهم . وأكثر معرفة بكنوز آداب اللغة وكل ثقافتها . فهذه هي سياسة تعليم البالغين كما نفهمها الآن وهي أفضل سياسة في هذا الصدد

وقد كانت الحركة التي سببت هذه الفكرة الجديدة حركة اختيارية صادرة من تلقاء نفسها . ولكن سرعان ما وجدت جماعة تعليم العمال لنفسها أنصاراً فحصلت على مساعدة الجامعات التي اشتركت معها في إنشاء فصول الثقافة ذات الثلاث سنوات . وهي تسيّر على نمط مشابه بعض الشيء لنظام الجامعات ويقوم بالتدريس فيها مدرسون جامعيون لقائدة العمال رجالاً ونساء .

وقد حصلت أيضاً على مساعدة كل من الحكومة المركزية والسلطات الحكومية المحلية . حيث بدأت بمنح الإعانات لمساعدة هذه الفصول سواء ما كان منها يدار بواسطة جماعة تعليم العمال نفسها أو بمساعدة الجامعات — إذا بلغت مستوى كافياً .

وقد حصلت أيضاً على مساعدة نقابات العمال فقد منحها الكثير منها إعانات ، وغير ذلك من وسائل التشجيع الأخرى .

وعلى هذا الأساس ومع هذه الشعب الواسعة الانتشار قد وضع نظام للفصول الأسبوعية . وأحسنها ما اجتمع أربعة وعشرين مرة في أثناء فصل الشتاء . والأحسن منها جميعاً ما اجتمع هذا العدد من المرات في دراسة مستمرة في بحر ثلاث سنوات متتابعة .

وكان يعنى في المواد التي تفنن في فترة الدرس أن تناسب الغرض المدنى العام من هذه الحركة عن طريق إلقاء المحاضرات التي تعقبها المناقشات ، فكتابة المواضيع الإنشائية ، ثم القراءة المستقلة .

وتشمل البرامج دراسة التاريخ المحلي ، والأهلى ، والدولى ودراسة الاقتصاد انظري والتاريخي جنباً إلى جنب مع السياسة النظرية . ونظام تكوين الجماعات وكذلك الأدبيات والفلسفة والعلوم الطبيعية وعلى الأخص علم الحياة وعلم النفس .

واتجاه التعلم هو في الغالب اتجاه جامعي والروح السائدة هي الروح الجامعية الخالية من الغرض والموجهة لتحقيق العلم لمجرد المعرفة .

ومن الممكن إضافة ملاحظتين عن هذا البيان الإجمالى في فصول البائعين من حيث اجتماعها في أى مكان يوجد أسبوعاً فأسبوع .

فأولا ليست جماعة تعليم العمال The Workers' Educational Association هي الهيئة الوحيدة المختصة بإنشاء هذه الفصول . فهناك هيئات وجماعات اختيارية تعمل على تعليم البائعين مفضلة على العموم تأدية عملها مستقلة وبلون مساعدة الإعانات . ومن هذه الهيئات يمكننا ذكر الاتحاد الأهلى لمدراس البائعين The National Adult School Union والاتحاد التعاونى Co-operative Union ومعاهد النساء Women's Institutes والجمعيات التعاونية للنساء Co-operative Women's Guilds .

ثانياً — وفي شكل مختلف توجد المعاهد المسائية التي يطلق عليها اسم معاهد الآداب وقد تم إنشاؤها في لندن منذ سنة ١٩١٩ بواسطة مجلس مقاطعة لندن وهي السلطة الحكومية المحلية لدائرة لندن .

ولهذه المعاهد خاصتان ظاهرتان :

- (١) فهي تخضع في إدارتها للسلطات العمومية ولا تتبع حركة التطوع .
- (٢) إن لها مبانيها التي خصصتها لها هذه الهيئات .

وهي عادة مراكز ثابتة ودائم (وتتماز بزيادة التسهيلات) — يختلف في نوعه عن المراكز المتغيرة الأخرى التي تجتمع فيها فصول جماعة العمال للتعليم والتي يتعين عليها استئجارها لنفسها وخلافا لذلك فإن الدراسة في فصول معاهد الآداب Literary Institutes تستخدم نفس الغرض من تعليم البالغين وتغذيتهم بسلسلة المعلومات المدنية العامة لولا أنها تتجه كثيرا إلى دراسة الجانب الأدبي من العلوم الأدبية .

والى هذا الحد قد اهتمنا بتعليم البالغين الذي يشغل جزءا من الوقت بواسطة فصول أسبوعية في بعض مراكز مسائية تستأجر أو تخصص بواسطة سلطات عامة لهذا الغرض .

ولكنه من الجلي إمكان وجود نظام آخر لتعليم البالغين — ولو أنه على أساس جزء من الوقت إلا أنه مستمر نوعا ويشغل وقتا كاملا في المراكز المدنية مثلا. وبعبارة أخرى يمكن إنشاء كليات مدنية لتعليم البالغين ومن الممكن تسميتها الكليات الشعبية A People's College يتحقق بها العمال والعاملات لمدة ثلاث أو ستة شهور ولمدة أطول ثم يعودون إلى عملهم السابق عند نهاية المدة. ولا شك أن هذا أمر ظاهر الأهمية يختلف عن الدراسة المسائية بعد انتهاء العمل اليومي فهي تعطى العمال رجالا ونساء فرصة يتمتعون فيها بقراءة مستمر بقضونها في تنمية معارفهم ومصالحهم ولذلك فهي تستحق درسا عميقا .

ويوجد فعلا عدد من هذه الكليات المحلية بعضها للرجال والبعض الآخر للنساء . ومن أقدمها كلية رسكن Ruskin College بمدينة إكسفورد (وهي ليست إحدى كليات جامعة إكسفورد) ويرجع تاريخ إنشائها إلى أربعين عاما . ثم قامت بعدها كلية هارلش Harlech College التي أسسها الدكتور توماس جونز Dr. Thomas Jones ونيوباتل أبي في إسكتلندا Newbattle Abbey ويرجع الفضل في إنشائها إلى المرحوم مركز لوثيان Marquis Lothian

وكذلك توجد كليات أخرى مثل فيركروفت Fircroft وهل كروفت H. J. Croft ولكنها لاتزيد في عددها عن عشرة وهي لاتسع إلا لعدد قليل . فهل من الممكن توسيعها وتعميمها؟ إن الإجابة على هذا السؤال يبدو حكم من الأحلام ولكنه حلم بدأ الكثير في رعيته ومن المحتمل أن يصبح حقيقة واقعة .

إنه حلم الكليات الشعبية المنتشرة في كل أنحاء المملكة حيث توجد كلية في كل مقاطعة وربما أكثر من ذلك في المقاطعات الأكثر ازدحاماً بالسكان يمكن للبالغين من الرجال والنساء الالتحاق بها إما قبل الزواج والاهتمام بالشؤون الطائفية أو بعد ذلك عندما تزول أو يخف ذلك الاهتمام ليتبعوا بدراسة كاملة لمدة ثلاثة شهور أو لستة شهور (وفي بعض الأحوال لمدة سنة) في صحبة زملائهم . على أن يتدبوا من عملهم لهذه المدة مع تعهد وتأكيدهم بارجاعهم إلى وظائفهم السابقة عند عودتهم . ومن الممكن مساعدتهم في ذلك ولكن عليهم اقتصاد مبالغ صغيرة تعينهم في الحصول على هذه الفرصة .

ويلزمهم كذلك مدرسون أكفاء . ومحل إقامة مناسب في وسط صحي حسن وذخيرة كافية من الكتب اللازمة للدراسة وغير ذلك من التسهيلات الأخرى .

وكيف يمكن تحقيق ذلك ؟ من الممكن تحقيق ذلك بطرق مختلفة تابع في آن واحد .
فيمكن للهيئات الاختيارية Voluntary Bodies أن تنشئ وتدير كليات على نفس الأساس الذي تتبعه المدارس الشعبية العليا الدائمية (هذه هي الطريقة المتبعة في الكليات المدنية الإنجليزية لتعليم البالغين الموجودة الآن) ومن الممكن مساعدتها على تحقيق ذلك بالاعلانات التي تمنح لها من السلطات المحلية التعيمية ومجالس التعميم أو من الأخير .

وإضافة لذلك فيمكن للسلطات التعيمية المحلية وحتى الحكومة نفسها أن تنشئ الكليات الشعبية على أن تترك أمر إدارتها بقدر ما يمكنها إلى الهيئات الاختيارية لتشجيع حرية وتنوع التجربة .

ولنا الآن أن ندعو إلى ما يشابه الجماعات الإنجليزية بالنسبة للطلبة الذين يخصصون جميع وقتهم للدرس وذلك بإنشاء جامعات تساعد الحكومة والهيئات التعليمية المحلية على أن يكون لكل منها حرية في كل شؤون إدارتها وتقديمها الداخلي .

ومهما اختلفت الخطة المتخذة ، فيجب أن تكون الروح السائدة في الكليات المدنية التي يلتحق بها هؤلاء البالغون من الرجال والنساء من روح الاعتماد على النفس في الإدارة وفي التفرغ متوافق منهم وتجارهم في الحياة وخلق المجتمع الديمقراطي الذي انحدروا منه .

ويمكن إضافة ملاحظة أحيرة وبسيطة بخصوص الكليات الشعبية فستزداد مصاعب ملاكها في صيانة المنازل الريفية والدور المنتشرة في أنحاء هذه الجزيرة . وأي شيء أفضل من تصورنا استعداداً مقراً للكليات الشعبية حيث تبدأ حياتها في وسط من الجمال وتقاليد القديمة وقد بدأ حزب المحافظين - من سنين مضت - بإنشاء كلية مركزية لأعضائه في مرغل ريفي جميل وقد نجحت هذه الكلية . وما أمكن عمله لحزب يمكن عمله للشعب .

ولن تحمل الكليات الشعبية وحدها مشكلة تعليم البالغين كلها فربما يستمر الجزء الأكبر من تعليم البالغين على أساس جزء من الوقت في الفصول الأسبوعية . وهذا أيضا يتطلب ما يناسبه وفي الغالب تكون فصول الدراسة في حاجة الى تهيئة المكان اللازم للاجتماع . ومن الممكن أن تحتوى الكليات الشعبية عند تعميم إنشائها على غرف إضافية للحاضرات وغرف للدرس لاستعمال الفصول الأسبوعية التي يحضرها أعضاء من الجهات المجاورة .

وهناك حاجة أيضا لإيجاد كليات أو معاهد أو محلات غير مركزية يمكن أن تستعمل كمراكز (وخصوصا في الأقاليم المزدحمة بالسكان) تعقد فيها الفصول الأسبوعية كما يمكن استخدامها في تقديم بعض شؤون الحياة العامة بين أعضائها .

وقد عمل فعلا بعض الشيء في ذلك الاتجاه . وقد سبق أن أشرنا الى معاهد الآداب والعلوم التابعة لمجلس مقاطعة لندن . ويمكننا ذكر الكليات غير المركزية التي أنشئت وأديرت بواسطة الهيئات الاختيارية مثل كليات العمال بلندن وما شابهها من الكليات والمعاهد في المدن الكبيرة الأخرى .

وما يحتاج اليه خاصة لإعداد موطن حقيقى للفصول الأسبوعية هو تعميم انتشار الكليات الاختيارية غير المركزية بمساعدة إعانات الحكومة والسلطات المحلية للتعليم .

قال حكيم :

سنة يجب ألا تستشيرهم في أمور الدنيا :

جاهل يستطيع ، عدو يتقى لك الهلاك ، حسود يرذّب في زوال النعمة ، صراى ينقلب مع مقول الناس ، جبان عند الحاجة ، بنجيل لا يجود عند السؤال ، ذو هوى لأنه أسير هواه .